أن تكون وطني الغرب

أيديولوجيو «صراع الحضارات» المدافعون عن الحروب الكولونيالية الجديدة في العراق، أعداء التعدد الثقافي في أوروبا، وكذلك كل الساعين من أجل تفوق الحضارة الصناعية الغربية، ينتقدون المثقفين الأوروبيين لأنهم ليسوا «وطنيي الغرب»، ولكونهم لا يدعمون الكفاح من أجل القيم التي تخص الغرب. الكاردينال راتزينجرRatzinger مثلاً، وهو رئيس لجنة الكرادلة لعلوم الأديان (سابقاً محكمة التفتيش المقدسة)، أعلن مؤخراً أن الغرب ضحية «كراهية الذات المرضيّة» و«لا يُقدّر نفسه ولا يرى من تاريخه إلاّ ما هو مدان ومدمِّر»، وإذا ما أراد الغرب الحفاظ على بقائه فيجب عليه أن يتعلّم «التصالح مع نفسه»، وأن يدافع عمّا.. يخصّه، وأن يتجاوز جلد ذاته. رئيس مجلس الشيوخ الإيطالي، الفيلسوف المعروف والأستاذ الجامعي مارسيلو بيرو Marcello Pera علّق على تحذيرات الكاردينال في خطاب له في جامعة لاتيران في الفاتيكان، مضيفاً «كما تسود في الغرب اليوم فكرة مفادها أنّ أيّاً من مكوناته البنيوية العامة، لا تملك قيمة عالمية، وعلى هذا، فإن تقديم مؤسساتنا للعالم كنموذج لن يكون إلاّ غطرسة ثقافية». ويحذّر Pera من تأثير الفلاسفة (في المقدمة منهم نيتشة، ويتجنستين ودريدا الذين يختزلون الحضارة الأوروبية إلى مجرد ثقافة، واحدة من ثقافات كثيرة. وهكذا يُفرَّغ الغرب من محتواه، أمّا قادته فيتنازلون عن الصلاحية العالمية للقوانين والمؤسسات الغربية.

تتدفق علينا من الإعلام الأمريكي خطابات المحافظين الجدد، المتعالية، يروجون فيها لمقولة أن كل احتلال أمريكي هو تحرير، وأن الهيمنة الأمريكية مسألة جيدة للعالم، وأن الرأسمالية المعولمة تحت رقابة البنك الدولي وصندوق النقد الدولي هي «نظام أخلاقي موضوعي»، وأن هذه الرأسمالية لا ترفض إلاّ الأصولية الدينية أو المصالح الطبقية للإرهابيين المصابين بالعمى.

وبأسلوب مثير للشفقة خاص بالشيوعيين السابقين، القابلين للهداية من كل دين جديد، يكتب السيد بيرجي سوخانِك عن «الوطنية الغربية»: «... يتزايد عدد الأوروبيين الذين... يخجلون من ماضيهم

الكاردينال راتزينجر، انتخب مؤخراً بابا للفاتيكان.

القاسي... إنسانيّونا هؤلاء، لا يستطيعون الغفران لآبائهم لأنهم.. هاجروا إلى العالم وكافحوا من أجل موقع تحت الشمس، وحتى لأنهم انتصروا... أغرب ما في الأمر هو حقيقة أن هذا البصاق على قبور أجدادهم يُسمّى إنسانية».

هذا النوع من المحاججة يعرفه أبناء جيلي من نقاشات خمسينيات القرن الماضي، كان يقال في ذلك الوقت: إن «خرق الشرعية الاشتراكية» تجب رؤيته عَبر سياق الصراع الطبقي، وإن من الضروري حماية الشبيبة أمام «العدميين الكوزموبوليتيين، المشوهين لماضي شعبنا».

تمثل كتب الصحفية والكاتبة الإيطالية اوريانا فالاتشي الثلاثة – غضب وكبرياء، قوة العقل، واوريانا فالاتشي تتحدث إلى اوريانا فالاتشي، هذا الحديث الدرامي الذي يعتبر مرجعاً أخلاقياً لحياتها، هو أكثر الأمثلة المعاصرة شهرة في الدعوة إلى (الوطنية الغربية). مهمة الكاتبة سهلة: اتضح لي أنني أموت بسبب سرطان مستعص، لكن الغرب مصاب بمرض أسوأ من مرضي. كيف؟ إنه يتعاون مع أعدائه، مع منكري قيمه، إنه لا يبكي ضحاياه بما فيه الكفاية، ولا يتقن كره أعدائه، بما فيه الكفاية. مثقفو الغرب وسياسيوهم بدل أن «يدافعوا ببطولة عن أعلى قيم الحضارة – هويتهم الخاصة وقيمهم الخاصة» فإنهم يبدون مشاعر الشفقة حيال حكايات الدموع عن الأطفال الفلسطينيين، ويُدينون الحرب على العراق، وينتقدون الرئيس بوش. في أوروبا تتكاثر «سرطانات مستعصية: الفاشيونازية الجديدة، البلشفية، والنزوع إلى التعاون مع العدو... هؤلاء الذين يحطمون واجهات محلات الماكدونالدز أثناء مسيراتهم الاحتجاجية، اليسار الذي استبدل أعلامه الحمراء بأعلام قوس قزح». في اجتماع لحزبه في نيويورك تمّت مقارنة جورج بوش بتشرشل! وصحيفة Corriere della sera الصادرة بتاريخ 2004/9/9 في تعارض مع الأحاسيس العقلانية البديهية تقذف بمثل هذه المقارنة اللاتاريخية: في صفحتها الأولى توجد صورتان – تلك الصورة المجيدة من انتفاضة غيتو وارصو عام 3491، حيث يبدو فيها طفل صغير وقد رفع يديه فوق رأسه تحت تهديد البنادق الألمانية، أمّا الثانية فمن بيسلان، حيث يبدو فيها طفل صغير أيضاً، يداه مرفوعتان فوق رأسه تحت البنادق. إن تسمية الإرهاب الشيشاني أو المسلم بـ«النازية الفاشية» هي عدم نزاهة فكرية فظيعة، لأن النازية – الفاشية هي أحد مظاهر الغرب! هل يا ترى، كان في تاريخ أوروبا، بين اليهود الألمان المنصهرين وبين الألمان علاقة كما هي العلاقة بين الروس والشيشان اليوم؟ ألا يقف وراء هذا الصبي من بيسلان، رغم عجزه الراهن، واحد من أقوى جيوش العالم، والذي لم يتوفر، في الواقع، لذلك الطفل اليهودي الصغير عام 1943؟

إن تعريف أفكار ومواقف معينة كعدوى مَرَضيَّة للجسم، يجب علاجها وتصفية ناقليها، ما هو إلاّ تعبير أصيل عن الثقافة السياسية الشمولية. فـ«الدفاع» عن الدولة، الشعب والحضارة» قد جرى الارتقاء به إلى «نظام أخلاقي رفيع» يبرر لنا تجاوز كل الحواجز والشكوك و«بلا هوادة مسح السموم والبكتيريات، وجيوب العدوى من جسم الشعب».

هل يموت الغرب لعدم رغبة مثقفيه في الدفاع بحماس عمّا يخصه؟ بأي معنى يمكن للمثقفين الغربيين الإحساس بأنهم وطنيو الغرب؟ هل الغرب حضارة عالمية أم مجرد ثقافة من ثقافات كثيرة موجودة على وجه الكرة الأرضية؟ وما الفرق بين الثقافة والحضارة؟

الثقافة

الأستاذ فويتيخ نوفوتني Vojtech Novotny، أخصائي البيئة الأستوائية في جامعة تْشِسْكِهْ بوْدِه يوفتسه،

لخّص في كتابه (أنصاف) الحقائق البابوانية (دار نشر دوكوجان 2004) تجاربه مع اللقاءات البيثقافية في منطقة بابوي – غينيا الجديدة. اللقاء بين الثقافات يبدأ في اللحظة، التي يظهر فيها «الأجنبي»، ويكون من الضروري إيضاح «أجنبيته». فمثلاً لدى دخول البيض، تفاعل البابوانيون، الذين رأوهم لأول مرة، مع الحدث، بجنوح سلمي كبير، ورحبوا بهم بمشاعر مختلطة من التفاجؤ والسرور. «إن اكتشافهم المفاجئ للبيض تم تفسيره من جانبهم في اطار الكوسمولوجية المحلية، بشكل قاطع عموماً، كصورة لروح أجدادهم الموتى». لأنه من المتعارف عليه لديهم، عموماً، أن أرواح الأجداد بيضاء، وبما أن العالم ينتهي خلف الجبال في الأفق، فإن أي شيء آخر غير الأرواح، ما كان له أن يكون. كل إيماءة وكل فعل، كان يُفسَّر كمؤشر على حدث ما من حياتهم الماضية. مثلاً «عندما قطع أحد أعضاء البعثة غصن شجرة ناشفاً، لاستخدامه في النار، تمّ مباشرة، التعرف عليه على أنه روح قد مات صاحبها منذ زمن طويل، ولكنه المعروف من قبل الجميع كقروي كان زرع هذه الشجرة في وقت من الأوقات، لقد امتلأوا غبطة لأن الروح تعرّفت على شجرتها الخاصة.

مثل هذا التعليل الجميل «لحضور الأجانب» لم يصمد طويلاً، العالَم البابواني باكتشافه للبيض تعكّر صفاؤه لمدة أطول، وبشكل أعمق مما قد بدا للوهلة الأولى، وعندما نسجوا معهم علاقات أكثر قُرباً، تطلّب الأمر منهم التصالح مع حقيقة اكتشافهم أن الأمر لا يتعلق بـ«أجداد قد قاموا من قبورهم» بل، بأناس عاديين يطالهم الموت، يعيشون وراء الجبال في الأفق، حيث لا ينتهي العالم هناك. الفرضية حول نهوض البيض من القبور كانت جميلة، لأنّ اكتشاف الأجنبي كان يمكن استنباطه من المفاهيم التي كانت تحت تصرفهم، ضمن ثقافتهم الخاصة. لكن كم من الوقت يصمد مثل هذ التفسير الجميل؟».

يُشار إلى الدائرة الحضارية، التي تمثل نواتها، الحضارة المسيحية في الاطار اليوناني الروماني التاريخي، يُشار إليها بالسجال الدراماتيكي حول مفهوم الشر، والذي يدعوه الفلاسفة بـ "theodicea"، والذي يتعلق الأمر فيه بتفسير وجود الشر في العالم المُسيَّر من قبل الإله، الذي هو ليس مطلق القدرة وحسب، بل في المطاف الأخير، الطيب والعادل أيضاً.

من يستطيع نسيان «لا» ايفان كارامازوف اليائسة، والملهمة أخلاقياً، للإله الذي يسمح بعذاب الأطفال الأبرياء؟ لكن أمثال ايفان كارامازوف أصبحوا في مرحلة لاحقة أسوأ حالاً: إلاههم سمح بـ ايبيريت، اوسفيتيم، هيروشيما، جولاغ، أبو غريب، بيسلان. هل نملك حق تمجيد الإله، الذي يتغاضى عن كل هذا؟

يُفسَّر الشر في الدائرة الحضارية المسيحية (ويُعلّل) باعتباره خطوة ضرورية على طريق إنقاذ البشرية. مثلاً: التراكم الرأسمالي الظالم هو الشر الذي تزدهر في داخله الاشتراكية الخيّرة، الحروب تدفع البشرية نحو مرحلة حضارية أعلى، القضاء على المخلوق الأقل شأناً هو في صالح المخلوق الأرقى.

لكن هنا يوجد الشر المطلق أيضاً، الذي لا يمكن لأي خير مستقبلي أن يغفره. أرى في صحيفة (lidovy noving) تاريخ 26/8/2004 صور العراقيين، الذين جرى تعذيبهم، أرى أجساداً نحيلة عارية محزومة وفوقها حراس سمان بملابسهم الرسمية، ذوو شعر قصير محلوق. الصور تضجّ بكل تلك الكراهية الأمريكية تجاه كل شيء، لا يماثلهم (... انعدام المشاعر، الأمريكية، تجاه الغير، مشروط دينياً، تاريخياً وبسيكولوجياً» يقول باتريك أوريدنيك في revui Aluze عدد 3/2003.

يُقال إن السجانين الأمريكيين سائسي الكلاب كانوا يراهنون في ما بينهم على من سيتبوّل على نفسه من

الكوسمولوجية: جزء من علم الفضاء، والمقصود هنا محاولات الإنسان البدائية لمعرفة أو إدراك مكانه في الكون. المترجم.

السجناء، أولاً، وذلك عندما يسلّطون عليهم الكلاب. إنه مَثَلٌ يُنبئُ بطريقة تفكير المُهيمنين العالميين.

البارحة، طبع أحدهم، وهو ذو عينين ممتلئتين بالإيمان العميق، طبع على يديَّ صورة المسيح المُدمَّر المصلوب وقد كُتب عليها «كل هذا عانيته من أجلك». هل كان المسيح سيصمد في أبو غريب؟ ألن يخون هذا الفلسطيني رسالته أكثر من هؤلاء البيلاتيين وهم بين أيدي التابعين الأوفياء لمن هم أكثر همجية بما لا يُقاس.

الالتزام القهري، الذي يفرضه علينا الشر في العالم، بعد موت الإله المسيحي، عبَّر عنه بأعمق ما يكون جان بول سارتر، وذلك في محاضرته الشهيرة في شهر تشرين الأول من عام **1945** والمسمّاة الوجودية إنسانية: «... (إذا لم يكن الإله موجوداً) فالإنسان متروك لقدره، لأنه لا يجد لا في داخل نفسه ولا خارجها، أي إمكانية للإمساك بقيمة ما، وقبل كل شيء إنه لا يجد العُذر... الإنسان هو الحريّة... لا توجد أمامنا قيم أو تعاليم تبرر تصرفاتنا».

كل ثقافة هي سجال، من أجل الدفاع عن مفهومية العالم، مع الأجانب من كل الأنواع – مثلاً مع هؤلاء الذين يطرحون أسئلة غريبة بمعظمها، الذين يسألون عن القضايا، التي يجب أن تكون بديهية بالنسبة لهم.

الأجانب يقدمون أدلتهم بشكل مختلف، ويتكلمون بشكل مختلف، ولهم أهداف مختلفة، يرون العالم عبر منظار مختلف، ولهذا، يجب أن يكونوا مُبادين أو مُفَسَّرين – ولا يوجد فرق كبير، دائماً، بين الحالتين. الثقافات القادرة على «ايضاح الأجنبي» تعبر صدمة النسبية، وفي داخلها تعدو أزمة مفهوم عالمها، عموماً، تجارب تقاسمية. تبرز إلى السطح الأسئلة الراديكالية، التي عندها تصنع من مجرد عروض تاريخية ومجرد ثقافة، حضارة.

الحضارة

كلمة «حضارة» تظهر متأخرة عن كلمة «ثقافة»، والمجتمع، الذي يعد القوانين – على النقيض من المتوحشين والبرابرة – يؤشر على كلتيهما؛ وكمصطلح فلسفي فإن الحضارة تؤشر على حركة تاريخ الإنسانية من وضعية اللاارقي والبربرية، باتجاه شكل أعلى، أي شكل من الاعتراف المتبادل والتعاون. في الحضارة، على عكس الثقافة، فإن مفهوم العالم يغدو موضوعة محددة للتفاوض، ومادة للعناية المنهجية.

فلنحدد الفرق بين الثقافة والحضارة على الشكل الآتي: الثقافة هي مجمل مؤسسات، حكايات، أشكال حياة، تجعل العالم مفهوماً؛ الحضارة على العكس، هي التحول الذي تعبره الثقافة عندما يتوجب عليها التفاعل مع حضور الأجنبي. «الأجنبي» هنا كناية عن لا مفهومية العالم، وما هو ير مفهوم يهددنا. الثقافة تصبح حضارة في لحظة التقائها بأجانب مثقفين، مرّ مفهوم عالمهم بعملية تصويب ترتكز على النسبية؛ وتفسيرها في العالم.

السيد يان باتوتشكا أطلق على الغرب تسمية «ما فوق الحضارة العالمية»، لأنها تختلف جذرياً عن كل حضارات الماضي، التي نشأت عن جوهر ديني وبقيت عالميتها، لهذا السبب، دائماً غير كافية. الجوهر العام لما فوق الحضارة هو «العلم التقني» والنمو الاقتصادي المتأسّس عليه؛ علم التقنية هو «رؤية جوهرية وملزمة» وهو عالمي لأنه قابل للنقل ولا يحتاج إلى دوي ذاتي «خاصيته النمو الأوتوماتيكي، وهو تراكمي».

فيلسوف تشيكي **1907–1977**، من مؤسسي «الميثاق 77» المناهض لنظام الحكم الشيوعي. المترجم.

أكثر ما يهدد ما فوق الحضارة هو القوى، التي تعمل على تفوّق سلطة العلم التقني على حساب الطبيعة والمجتمعات، من خلال عملية ذاتية الهدف، وعلى تحريره من أفكار وحقوق «العامّة غير المتخصصة» وكذلك تحريره من القيود الأخلاقية، الثقافية والانثروبولوجية.

إنَّ ما ننظر إليه كتهديد في كلمة «عولمة» هو بالضبط إعفاء النمو الاقتصادي من حق المواطن في السؤال «أي معنى له؟» – لا يجب لأي مسألة أن تفرمل «النمو التراكمي التلقائي».

العدمية (النِّهلستية)

كتب المؤرخ بوميان في مداخلته حول التاريخ الأوروبي (أوروبا وشعوبها، دار نشر ملادا فرونتا Mlada fronta 1002) أنه في فلسفة نتيشة «تتركز خلافات أوروبا لدرجة لا تطاق»، ولتلك الدرجة اسمها المثير للفزع – النِّهليستية. القاموس التشيكي يعرّفها كما يلي: «نفي تام لكل القيم الأخلاقية الاجتماعية... إلخ» لكن لماذا اقتحمت هذه الروح الإنكارية العدمية باب أوروبا المسيحية؟ لأنّ إرادة تفحّص كل خداع للذات، غدت في الغرب أعلى القيم – الحقيقة هنا هي من صنف أخلاقي.

«... من بين القوى التي نَمَّتها الأخلاق كانت الصِّدْقية: وهذه تنقلب في النهاية على الأخلاق، تُعرّي... تحيِّزها... و... تلعب بالتحديد دور المحفِّز. وباتجاه العدمية نكتشف في أنفسنا احتياجات... تلك التي تَظْهَر لنا الآن كاحتياجات ليست ذات مصداقية: من جهة أخرى، إنها تلك التي تبدو وكأنها حاملة القيم التي من أجلها نحتمل الحياة. وبالضبط هذا التضاد: أنّ ما نعرفه لا نُثمنه، أما الآمال التي نريد تعليل النفس بها فيجب ألاّ نثمنها بعد. وهذا ما يولد عملية الهدم» (ف، نيتشة. Fragmenty about nihilism).

الحقيقة كقيمة أخلاقية عامة تدعونا إلى دحض الحكايات التي يرويها الناس لكي «يحتملوا الحياة» لكن، بأي شيء سيعوض المؤمنون بالحقيقة عن تلك الحكايات؟ أبحكايات مختلفة! وكل الحكايات الجديدة ستتم تعريتها كخداع ذاتي آخر!

وهكذا تطل العدمية برأسها.

هل جوهر الاضطراب الأبدي في الغرب هو تنويري، أم أنه إرادة إخضاع الحياة بكليتها للنقد، أم بكلام آخر تأسيس أسطورة (أحاديث تتداولها الأجيال تجعل من العالم مفهوماً) للّوغوس (الحقائق العامة المكتشفة بواسطة العقل) لكن ذلك ما هو إلاّ محاولة عبثية: القيم التي بفضلها نحتمل الحياة، والتي تجعل العالم مفهوماً، هي دائماً حكايات قبيلتنا. النقد الغربي يقود بالضرورة، إلى العدمية وإلى إنكار كل القيم.

لنتذكر أن ماساريك أيضاً، اعتبر العدمية مرض القرن؛ وفي اطروحته للدكتوراه في مجال السوسيولوجيا في جامعة ڤيينّا (ظهرت مطبوعة عام 1881) أعار اهتماماً لـ «الانتحار كظاهرة شائعة في المجتمع». «طالما لا يقوم الاصلاح الواسع للمسيحية بخلق المقدمات لـ «عبادة حديثة»، فإن التشكيكية الغربية ستقود إلى ضياع المعنى الحياتي، وسيصبح الانتحار «ظاهرة اجتماعية شائعة» – ذلك كان تشخيصه.

الناس من أمثال الكاردينال راتزينجير (وفي بلاد التشيك مثقفو المعهد المدني) يقترحون حلاً بسيطاً: فلثمِّن ومن جديد، وبلا عوائق، ما قد ارتضيناه خلال آلاف السنين، ولنعلن حكايات الغرب المسيحي – وهي قيمنا – ك «نظام أخلاقي موضوعي». وهكذا يجري حلّ التضارب بين البحث عن الحقائق والبحث عن معنى الحياة، بإنكار ما هو خاص بالغرب: الاضطراب المتفرّد، دائم الانبعاث والمُعدي، الذي ينشأ نتيجة الصراع

1850 – 1937 أول رئيس جمهورية تشيكوسلوڤاكي. ـ المترجم.

بين أنصار الحكايات، الواثقين بها، ومقدمي الحقائق النقديين، في المجال الأوروبي العمومي.

لا توازن جميل

يجب أن نتصدى لكل من يعادي ما هو خاص بالغرب. هكذا تلقننا أوريانا فالاتسي. لكن، ما الذي يخص الغرب؟ يمكنني القول إنه اللاتوازن الجميل ليس إلاّ، بين الحقيقة والمعنى، بين عدمية الحقيقة ومعنى أحداثنا الحياتية المنعكسة فقط في الحكايات التي ترويها كل القبائل الإنسانية كي «يكون لها ما يمكنها أن تعيش من أجله». هذا اللاتوازن ترعرع في اوروبا على شكل أهواء ثلاثة خطرة، تلك التي من أجلها تكون الحياة جديرة بالعيش، مع أن كلاً منها يجب أن يكون مربوطاً إلى رادع، حتى لا تتحول إلى استحواذ مدمِّر.

الأهواء الثلاثة الخطرة هي إرادة نحو: الرؤية النبوئية apocalypse، الرؤية الواقعية، ونحو مجتمع الكلمة، التصوري (imaginary).

الصيغة «إرادة نحو الرؤية النبوئية» (apocalypse) تشير إلى قوة وحيدة مميزة، اكتسبها في الغرب، الفعل اليوناني العادي "apokalypo" أو: الكشف، التعرية، الإزاحة. القشرة المتشققة كشفت لُبَّ الشجرة، أزيح شعري الطويل عن أذني لأسمع بشكل أجود، أعري وجهي كي يتعرَّف عليّ الأصدقاء. هذا الفعل العادي اكتسب في التقاليد الغربية قوة فظيعة: يتوجب تعرية كل شيء، تهيئة مشهد القضاة عارياً كي لا يختبئ أحد خلفهم، أصبح أفلاطون يتصور روح الإنسان قبل المحكمة الأخيرة، مليئة بالندبات، كل ندبة منها تحكي قصة ذَنْب، ما من مكان للاختباء في المشهد العقابي «لآخر القضاة». حتى العالِم ينظر إلى العالَم بالنظرة التي تعرّي كل شيء. العلم يراكم الحقائق، يكشف ويُعرّي، وكل ما قد خسر خصوصيته بعد أن غدا عارياً، أصبح تحت سلطة مدراء الحقائق العلمية.

هذا الهيام بالكشف (apocalypse) وبالمحكمة الأخيرة، وبالحل النهائي، وباستعراض كل حكاية يطرد من العالم المعنى – هذا الذي نُثمِّنه، هذا الذي من أجله نحتمل الحياة.

بدون غطاء، بدون حملقة عيون، بدون مكان، حيث مشهد العلماء والقضاة، ممنوع دخوله، بدون «المعنى الذي تأتي به الحكايات» والذي يخصنا، لا يمكن للإنسان أن يستمر في العيش.

إعجاب الكثير من الشبيبة الأوروبية والأمريكية في زمننا هذا، زمن العلوم التقنية؛ بالمذاهب والأديان الشرقية وبالتطبيقات العلاجية، ينبع من حقيقة أن في داخلهم احتراماً أكبر لذاك الذي يجب أن يبقى سرياً، مستوراً، مخبأ، الذي يجب أن يبقى حكاية.

صيغة «الرؤية الواقعية» تشير إلى الفنون الغربية الجميلة «أن تقرأ نصاً وكأنه إفادة مؤلف عن كلية العالم».

هذا المعنى غدا في الغرب هوى عنوانه «رعاية الأدب الرفيع»: رؤية الغرب عن الواقع – وكذلك المقاومة الغربية التي لا تُقهر في مواجهة القوى، التي تفرض علينا رؤية ومعايشة، غير واقعية، للعالم – هي نتيجة لـ «فن قراءة العمل الأدبي». فيما يكمن ذلك؟ في القدرة على تمييز إشارات الفعل الكلي من خلال أحداث منفصلة. مثل هذه «القراءة الكاشفة لكل ما هو كلّي» هي حسب إعادة البناء الأورباخية الشهيرة (mimesis: تصوير الواقع في الآداب الأوروبية الغربية، دار نشر (Mlada fronta 1998 نتيجة لتأثير الطراز الأدبي الإنجيلي، الذي يهدم الحدود بين الحكاية المضحكة والتراجيديا، بين السامي والرخيص، بين اللغات، وبهذا وضع أسساً متينة لـ «التعدد المنطقي الأدبي» الذي يكشف عن البطولة النبيلة في «الحيوات العادية»،

Erich Auerbach: 1892-1957م. عالم في الأدب. ألماني – المترجم.

والتراجيديا في الحوادث الكوميدية للناس الصغار، الذين هم على هامش مراكز القوى. يشير أورباخ في كلمة (Figurative) إلى تلك الطريقة في الكتابة، حيث يكون كل اهتمام القارئ أو المشاهد «مشدوداً نحو علاقة المعنى، الواسعة».

نورثروب فراي، وهو أحد أكبر علماء الأدب في القرن الماضي، يحلل في كتابه «الدليل العظيم» المقدمات التاريخية لأسلوب القراءة الرمزية والذي هو «خاص بالغرب» هكذا: كما أن العهد الجديد كامن في العهد القديم، والعهد القديم مكتشفٌ في العهد الجديد، فإنه في كل حياة عادية يكمن المعنى الكلي، وكل حياة، بطريقة ما، تكتشفه. الحياة العادية لـ كارل تشابك هي كناية عن طريقة الكتابة والقراءة، الغربية؛ التي تلهمه البحث عن صور «من خلالها أستطيع رؤية حياتي كلها، ليس عبر نموها في الوقت، ولكن عبر رؤيتها بكليتها دفعة واحدة، أي مع كل شيء كان وأيضاً مع الكثير بل اللانهائي مما كان من الممكن أن يكون».

الرؤية الواقعية مرتبطة بفن رواية الأحداث، التي وإن كانت تصورية، فإنها تكشف عمّا هو جوهري، كلية الحياة. «العالم في صيغته الحياتية هو كلٌّ... وهو يكون دائماً أمام التفصيلات، يتجاوزها ويستوعبها في داخله. وهكذا فإنه في كل واحدة منها مشارك كامل في الرأي...». يان باتوتشكا

النص الأدبي فقط، يتقن، في كل حادثة منفردة، إيقاظ هذه الرؤية للكل المعاش، فينا.

طريقة القراءة هذه تؤسس لكرامة الإنسان في الثقافة الغربية، لكنَّ لها وجهها الشيطاني أيضاً. إذ العلاقة نحو الكلي يمكنها أن ترتدي حالة لامبالاة شمولية تجاه الأفراد، تجاه رؤيتهم وتجاربهم، ويمكن لها أن تغدو عنف الكلي المدمر تجاه أجزائه.

الهوى الأوروبي الثالث هو تأسيس مجتمعات تصوُّرية لقراء الكتب؛ مقدميها ومعلقيها. في مثل هذا المجتمع هناك أفراد أحرار بالمعنى الخاص – إنهم مستقلون عن كل ما هو موضعي، ذي صلة حيوية، معطى تاريخي؛ هم متحدون في فهم معنى النص وفي النضال المشترك من أجل تعميمه – **immagined communities** هكذا يسميه المؤرخ الأمريكي بينديكت اندرسون.

يتعلق الأمر هنا بنموذج خاص من المجتمعات المصطنعة التي يعلو فيها الولاء للكلمة المفهومة، على الولاء للجماعات ذات الصلة الحيوية، للشعب أو الطبقة الاجتماعية. النموذج البارز لمثل هذا المجتمع هو **Respubitca Litereri**

أو **Repubitque des letters**

الذي لا يمكن أن ينتسب إليه إلاّ ذاك، الذي يرغب في ترك الالتزامات تجاه كل ما هو شخصي، صُدَفيٌّ، وموضعي، ليس إلاّ، أي هنا اللاجوهري، أمام الباب.

يستند مجتمع الكلمة التصوّري إلى فهم معنى النص أو الأحاديث المحكية، ومن هذا الفهم، ينمو هذا المجتمع، كما من البذور، إذا ما استعملنا المجاز الإنجيلي. الناس هنا متوحدون في التغيير، الذي استدعاه لدى كل واحد منهم فهم معنى الكلمة.

عندما يقول المسيح عن أمه «من تكون هذه المرأة؟» إنما هو يكشف عن الفرق الشاسع بين الكلمة (الربانية) الاجتماعية العامة، وبين الروابط الحيوية الصُّدفية.

1890–1938 من أشهر الكتاب التشيك. المترجم.

ج. ب. سارتر في محاضرته المنوه عنها سابقاً يروي حادثاً مشابهاً: رجل فتي يناقش مع نفسه ما إذا كان عليه الذهاب إلى بريطانيا للكفاح، مع أن النتيجة ستكون موتاً محتملاً لأمه. إنّه يفاضل بين نوعين من الولاء: العام (مع أنه مجازي) وهو هنا لمجتمع هؤلاء، الذين فهموا معنى الكلمة، المؤسسين للديمقراطية من جهة، والخاص ليس إلاّ (مع أنه واقعي) وهنا لرباط صلة القربى، المتوحد بالحب والتعاطف تجاه الأفراد، من جهة ثانية.

التاريخ الغربي هو، قبل أي شيء آخر، تاريخ مجتمعات قُرّاء النص، التصوّرية، ومن أهم نماذجها تاريخياً، الشعوب العصرية والحركات العالمية الكبيرة.

لكن أليست مجتمعات الكلمة الفاعلة هي مجتمعات لا عقلانيّة في أحيان كثيرة – لنتذكّر الجموع الهاتفة بالشعارات الهتلرية! ألم يقف العقل فيها عاجزاً أمام قوة الشغب الشيطاني المدمّرة، حيث يتمكن مطلق الشعارات من إثارتها بكلمته؟ نعم مجتمعات الكلمة لها صفحتها الشيطانية أيضاً. وهي ديماغوجية غالباً، وتسكنها روح محاكم التفتيش، إنها تعلن نصوصاً محددة كنصوص مقدسة، تعلن عن بطلها وتشرِّع تعذيب المفسِّرين المُجازين.

خاتمة ما

أرى في الأخبار التلفزيونية فتيات فرنسيات من ذوات المعتقد الإسلامي، وهن يخترقن شوارع باريس لدعم «حقهن في الحياء»، أو حقهن في ارتداء الحجاب على رؤوسهن في المدارس. أندافع عمّا هو خاص بالغرب عندما نمنعهنّ من ذلك؟ أتذكر دعوى مشابهة – النضال اليائس لبعض زملائي في الدراسة من أجل حقهم في أن يدخلوا إلى الصف بشعرهم الطويل.

الغرب ليس كاتولوجاً للأوامر والقوانين والمؤسسات التي يتوجب علينا فرضها على أجانب ذوي ثقافة. ما يخص الغرب هو فقط ذاك اللاتوازن المنشط، بين أنواع هواه الثلاثة (وفي داخلها) والتي عالجناها هنا. ومن التقى بفعلها التحريري لن يستطيع العودة بعد، إلى «الحياة في التوازن» المهجورة، إلى مجتمعه التقليدي الخاص به. فقط هذا الانغمار في لا توازن كل الثقافات التي تلتقي بنا هو «قضية الغرب» – في الخير والشر.

فاتسلاف بيلو هرادسكي
ترجمة: برهان القلق
براغ